في جزيرة العرب

مناحي العمران الاجتماعية

فؤاد حمزه بك
وكيل خارجية الحجاز (١)

ليس من شك في ان العادات المحلية تختلف باختلاف البيئات والمواضع فالذي اصطلح عليهِ اهل البادية وتعارفوا على اتباعهِ قد يكون غير مؤتلف مع حالة اهل الحواضر والامصار. وللبداوة عادات بعضها انتقل بالتسلسل من الآباء الى الاحفاد وحوفظ عليهِ كما لو كان شرعة لا يصح الاخلال بها. وبعضها نشأ بحكم الضرورة القاهرة من شظف العيش وضيقه، وقساوة البادية ومرارة للعاش فيها كما ان للحواضر عادات تستوجبها ضرورات الحياة الهادئة المرفهة من تنعم في المأكل والمشرب وتبرج وزينة في الملبس والمظهر، ومن اشادة الآطام والقصور والاكثار من الفرش والخرثي وتنويع أسباب الراحة المادية بكل ما توصل الانسان الى ايجادهِ. ومع اننا عممنا استعمال لفظة عادات اهل الحاضرة على جميع السكان الحضر فانهُ من الواجب أن لا يند عن البال انهُ توجد اختلافات موضعية واقليمية عديدة بين مختلف الحواضر والبلدان. وكما أن هذا الاختلاف يشاهد على اتمه بين المدن المختلفة فانهُ يشاهد ايضاً في مختلف الطبقات في المدينة الواحدة. خذ لك مثلاً: احدى مدن الاقطار المقدسة الحجازية فانك لا تستطيع ان تجد عادة او عرفاً عاماً ينطبق على جميع أهل تلك المدينة بسبب اختلاف اطوارهم الناشيء عن اختلاط أجناسهم ولغاتهم وعروقهم وعوائدهم. فمكة المكرمة تتألف من خليط غير متجانس من الشعوب والامم الاسلامية التي وفدت اليها في أزمان وادوار متعددة وجاء كل واحد بعادات بلاده وعنصات قومه فاكتسب من محيطهِ شيئاً جديداً لم يمحُ ما انطبع في قلبهِ من عادات ألفها ونشأ عليها هو وقومهُ في بلادهم الاصلية

ان اختلاط الوافدين الى الاقطار المقدسة من سائر انحاء العالم الاسلامي قد نشأ عنهُ مزيج لهُ الآن ميزات خاصة لا تشبه المزايا التي كانت للوافدين في بلادهم الاصلية ولا هي تشبه المزايا التي كانت لاهل الحجاز قبل مجيء هؤلاء الناس اليهم. وقلَّ ان يستطيع المرء في مكة المكرمة وجدة ان يجد عائلات قديمة بل جل العائلات فيها ممن هاجر اليها واستوطنها منذ زمان قد يطول ويقصر واختلط الدم الهندي بالعربي والمغربي بالاعجمي والياباني بالاسود

(١) من فصل في كتابه «قلب جزيرة العرب»

المآكل

يُتناول الطعام في الحواضر على ثلاث دفعات في اليوم الواحد وتسمى واحدتها (وَجْبة) الاولى في الصباح المبكر وتسمى في نجد (الرَّيُوق) وفي الحجاز (فُكوك الرّيق) والثانية في الضحى وتسمى (غداء) والثالثة بين العصر والمغرب أو بعد المغرب وتسمى (عشاء)

أما في البوادي فالعمدة في عدد الوجبات ومواقيتها على الظروف والتقادير ووجود الطعام وحالة الانسان الشخصية . إلاّ ان الغالب ان يكون العشاء أهم الوجبات وأترفها

ويتألف الريوق في نجد من اللبن الرائب والعسل والتمر والزبدة في الغالب وأما في الحجاز فيختلف عن ذلك وبعضهم يتناولون الطعام المطبوخ في الريوق ايضاً

واما الغداء في نجد فيتألف من الارز المطبوخ باللحم او الجريش وهو نوع من البرالمجروش يطهى بالحليب والمرق او من المرقوق وهو نوع من الثريد او من القرصان وهو نوع آخر من الثريد او الشواء من اللحم

ويتألف طعام العشاء من نفس الانواع الاّ انهُ يعتنى به اكثر من الغداء وقد يزاد على الانواع الواردة في العشاء انواع من الحلوى المعمولة بالنشاء والحليب . وتوجد انواع اخرى من الاطعمة النجدية الاّ ان ما ذكرنا هو أهمها واكثرها شيوعاً واستعمالاً . ومن الضروري إضافة الحنينة وهي نوع من عصيد التمر والدقيق والسمن المطبوخ معاً الى المآكل النجدية الفاخرة

وقد يتفنن أهل الحواضر النجدية في طهي انواع أخرى من المآكل لا سيما البقول والخضر الاّ ان الاصناف التي أوردناها هي عمدة المعيشة المرفهة . فالبر والرز واللحم واللبن والتمر والسمن هي المواد الاساسية في المعيشة النجدية سواء منها معيشة الحاضرة أو معيشة البادية . وليس في معيشة الاخيرة ما يستحق أن يذكر لعدم عناية البادية بمآكلها من جهة ولعدم تمكنها من الزيادة عن الكفاف الضئيل من العيش من جهة أخرى

ويختلف طراز المآكل في الحجاز عنه في نجد من حيث تنويعها والعناية بطهيها . ولا يوجد طراز مخصوص يمكن تعميمه بل هنالك أنواع المآكل العربية الاصل أو المستعارة من الطراز التركي او الهندي او الجاوي . ويعتنى في الحجاز بالخضر اكثر مما يعتنى بها في نجد ولهم في طهي الخضر طرق عديدة ومتقنة

ويكثر استعمال الاقاويه والابازير في الاطعمة النجدية والحجازية ، مثل الهيل والزعفران والعصفر والفلفل الاسود والكمون وغير ذلك من أنواع البهارات . ولكل اكلة خليطة مخصوصة بها تطلب من باعتها جاهزة

وطعام أهل القرى الحجازية والبادية أبسط كثيراً من أطعمة أهل المدن . فقد شاهدت أشخاصاً ذكروا لي انهم قبل وصولهم الى المدن لم يشاهدوا الارز ولم يذوقوه ومآكلهم هي

في الاكثر من محصول دورتهم وعوضاً عن دقيق البر يستعملون دقيق الذُّخن والذرة ويستعوضون من ذلك أرغفة كبيرة تشوى على الحجر أو في الطابون [1] وتوضع بعد نضجها في إناء وتمزج بالعسل والسمن وتؤكل على هذه الكيفية

المشرب

المشروب الوطني في البلاد بأجمعها هو القهوة العربية وتطبخ بعد حمص حبوبها وسحقها في دلال من النحاس ويمزج بها نوع من البهار المعروف بالطيل . وبعضهم يستعمل القهوة بالزعفران أو بالقرنفل . وعلى كل فانها لا تمزج بالسكر بل تستعمل سُرَّة . وفي الجهات الجنوبية من البلاد في المنطقة المجاورة لليمن يستعمل الاهالي قشر القهوة مغليًّا ومزوجاً بالسكر كما أنهم يخلطون الزنجبيل بالقهوة

وقد شاع في الازمنة المتأخرة استعمال الشاي شيوعاً عظيماً يكاد ان يكون عامًّا في البادية والحاضرة وان دام الامر على هذا المنوال فقد لا يستغرب ان يحل محلها . ولا توجد أوقات معينة لاستعماله على نحو ما هو متبع في البلدان الاجنبية ، وانما جرت عادة اهل الحجاز ان يستعملوه بعد الطعام . وقد يستعملون النوع الاخضر منه بعد الطعام خاصة وفي الاوقات الاخرى يستعملون الشاي الاحمر المعتاد

ومما يكثر شربهُ في البادية وفي نجد على الاخص الحليب واللبن . وحليب الابل من أهم مواد الغذاء الرئيسية في البادية . فالابل تشرب المياه التي تعافها نفس الانسان وتصفيها في جوفها ثم تدرها للانسان حليباً لذيذ الطعم كثير الغذاء . ولا يستعمل حليب الابل الاَّ للشرب مع انه قد يوجد بين البوادي من يخرج من دمه نوعاً من السمن يسمى الودك . واما حليب البقر والماعز والغنم فانه يخمر ويستخرج منه السمن ويشرب الباقي منه باسم مخيض او شنيشه . وجميع السمن يستخرج من اللبن الرائب [2] ولا يوجد من يستخرجه رأساً من الحليب . وأما الجبن فغير مستعمل في نجد على الضدّ من الحجاز فان أكثر الحليب يترك في الآنية الى ان تتجمع على سطحه طبقة السمن فتؤخذ ثم يستعمل الحليب لاستخراج الجبن منهُ . ويوجد من يشرب حليب البقر والغنم والماعز قبل تخمره ممزوجاً بالزنجبيل واستعمال هذا يكثر في جهات عسير . هذه هي المواد المستعملة للشرب غير الماء القراح

أما المياه فانها تختلف عذوبة وملوحة وصفاء بالنسبة الى المواقع المختلفة . ومنها ما هو محصول الينابيع والآبار ومنها ما هو من مياه الامطار او الآلات المقطرة . وماء الشرب في ينبع وجدة انما هو من الماء المستقطر من مياه البحر الملح

---

(١) فرن بسيط مصنوع من اناء كبير من الخزف يحمى جيداً وتلصق الارغفة على جدرانه ويسمى في بعض البلاد العربية باسم تنور (٢) يسمى اهل نجد اللبن الماضي «زرباً»

ويوضع الماء في المدن الحجازية في أواني خزفية يدعونها (أزياراً) لتصفيتها وتبريدها . وأما نجد والبادية فان الماء فيهما يوضع في القِرَب على الغالب

الملبس

مع ان الملابس المستعملة في انحاء البلاد هي الملابس العربية ، فانهُ من الصعب ان نحصر أشكالها في طراز واحد عام

فلباس الرأس في نجد وفي البادية بأجمعها هو الغُتْرَة [1] والعقال . وفي الحجاز هو العمامة او الغترة فقط وتسمى في الحجاز عمادة . وتوضع الغترة على الغالب فوق طاقية صغيرة تعمل في نجد من قماش الصوف وتحشى بقليل من القطن وفي الحجاز من قماش القطن الابيض . والعقال على أنواع : منه عقال الصوف الأسود او الأبيض ومنه عقال الصوف المقصب او الحرير المقصب . وقد يستعمل البدوي قطعة من الحبل او الجلد المفتول بمثابة العقال. ومشايخ الدين في نجد وكافة الاخوان يضعون الغترة بدون عقال أو يعصبون على الغترة عصابة من قماش الشاش الرقيق . وأما في بادية الحجاز وعسير فان العقال قليل الاستعمال وكذلك الطاقية وتستعمل الغترة كغترة وعصابة في آن واحد . وفي مدن الحجاز تستعمل الغترة بأن تلف فوق كوفية من قماش القطن المنشّى . وأما العمامة الحجازية فانها تتألف من قسم يشبه الطربوش بشكله الا انها تعمل اما من الخيش واما من القماش المطرز بألوان زاهية من اخضر واحمر واسود وابيض وتعصب العمامة البيضاء فوق هذه الاسطوانة من أسفلها ويترك اعلاها بارزاً لتظهر الالوان . وتكون الغتر اما من الصوف واما من قماش القطن الملون او المرقط او من قماش الحرير المطرز . ولباس الجسم عموماً يتألف من ثوب من قماش القطن وقد يكون الثوب ذا أردان تنتشر من المرفق او بدون الاردان كما انه قد يكون الثوب طويلاً حتى كاحل الرجل او قصيراً حتى الركبة او دونها بقليل . وقد يستعمل حزام من القماش او الجلد فوق متوسط الثوب كما هي الحالة بين بادية الحجاز وعسير او بدون ذلك كما هي الحالة في نجد وبادية شمال الحجاز. واستعمال السراويل تحت الثوب محصور في طبقة مخصوصة بين البادية وحواضر نجد . وفي ما عدا ذلك فالثوب يستعمل من دون السراويل

اما العباءة فانها الشعار العربي البين ، وهي من قماش الصوف الرفيع او المتين توضع على المناكب فوق الاثواب . ومنها انواع عديدة من حيث اللون والقماش والخفة والثقل . وهي من المصنوعات المحلية لها أسواق ومغازل مختلفة ومنها بجيء بجلب من خارج البلاد

ذكرنا ان الثوب هو اللباس العام وليس معنى هذا انه لا يوجد ما يستعمل سواه. وانما خصصناه بالذكر لانه أعم انواع الملابس استعمالاً بل يمكن القول انه هو الاساس والانواع

(١) قطعة من القماش مربعة تطوى طيتين على شكل مثلث قاعدته تكون في مقدمة الرأس فوق الجبين

الاخرى هي تبع له . وقد يلبس فوق الثوب نوع آخر من الملابس يسمى زبون [1] وقد يزاد فوق كل ذلك وتحت العباءة معطف صوفي او حريري او قطني

ويستعمل فوق الثوب في مدن الحجاز والحسا غير الزبون والمعطف نوع آخر هندي الاصل يسمى «شايلة» وهي مثل الزبون إلاَّ انها تختلف عنه بأنها أقصر من الزبون ولها ازرار فوق الصدر . ولا يفوتنا ان نذكر الجُبَّة الحجازية أيضاً فانها تلبس فوق الشايلة عوضاً عن العباءة . وتعمل الجبب من جميع أنواع الأقمشة الصوفية والقطنية والحريرية الأبيض منها أو الملون . اما لباس الاقدام فهو النعال الوطنية المعمولة من الجلد المدبوغ في البلاد بألوان مختلفة زاهية ولا تدخل المسامير في صنعها بل تخاط بالخيطان او السيور . واكثر البادية لا يستعمل النعال مطلقاً بل يسير البدوي حافي القدمين . وملابس النساء تختلف بالطبع عن ملابس الرجال بحسب أحوالهن مع ان الأساس في الاثنين واحد

الزينة والتبرج

يطلق الرجال شعر الرأس كالنساء في اكثر انحاء البلاد . ويضفر الشعر غدائر تتدلى على المنكب والاكتاف وتُضمَّخ بالطيوب المختلفة . واما المتقدمون في السن من الرجال او مشايخ الدين فانهم يقصون شعر الرأس . وفي الحجاز يحلقونه او يقصرونه كثيراً ، واما النساء فمن البديهي انهن يحتفظن بشعرهن كما هو ، ولم تدخل بينهن عادة قص الشعر

ويطلق عموم السكان لحاهم ولا يحلقون منها الاَّ ما كان تحت الذقن او ما نبت من الشعر على كرامي الخدود . واما الشاربان فيتركان على حالهما وانما يقصران عملاً بالحديث المأثور « حفوا الشاربين واطلقوا اللحى »

ولا يلبس الرجال الحلي الذهبية ولا غيرها . كما انهم لا يلبسون الملابس الحريرية الاَّ فيما ندر في بعض المدن الحجازية . واما النساء فليس عليهن حرج في هذا الباب

وعادة الاكتحال والتضمخ عادة فاشية عموماً بين النساء والرجال في نجد والبادية كلها . واحسن انواع الطيب عود الند وعطر الورد وعطر العود والزباد [2] ولا توجد بين النساء عادة استعمال المساحيق . ويتختم اكثر الرجال في نجد بخاتم فضي فصُّه من العقيق يحفر عليه اسم حامله ويلبس في خنصر اليد اليمنى

ويحمل الرجال بعض انواع الاسلحة كالجَنْبيَّات او المسدسات او السيوف وقد شاهدنا ان كثيرين في البادية يحملون عوض الجنبيات مدًى عادية يستعملونها في احتياجاتهم اليومية العديدة . واكثر البدو يحملون علاوة على ذلك منقاشاً وملقطاً شعريَّاً وموسى صغيرة لاقتلاع الشوك من الايدي والارجل

(١) يسمى في الخارج تبازاً (٢) عطر يستخرج من غدد بعض الحيوانات الثانية

وعادات الاستياك بمسواك من جذور شجر الاراك عادة عامة تقريباً . وهي مستحبة قبيل الصلاة مباشرة . والنساء يستعملن الحِنّاء لطلاء اليدين والرجلين وتلوينها بها

الأفراح والمآتم

أصبحت العادات المتبعة في الافراح والمآتم خلاف ما كانت عليه قبيل قيام الحكومة الحاضرة التي حملت الناس على عدم الخروج عن حدود الشرع فيما يتعلق بذلك . فقد أبطلت عادة إحياء الموالد وحلقات الذكر المشهورة في الامصار. ولم يعد في الامكان استعمال آلات الطرب التي كان استعمالها مباحاً من قبل. وجل ما يمكن السماح به استعمال الدفارة والحداء

ففي حفلات الزفاف لا يتعدى الامر اجتماع الناس للتهنئة واجراء العقد وحضور الوليمة في مدن الحجاز يسير العريس في الليل الى منزل العروس بين المشاعل وسط لفيف من اقرانه وأصدقائه . ولا يكتب عقد الزواج بصك كما هي العادة في سائر الامصار إلاّ في حالات قليلة جدًّا . وقد ابطلت عادات الندب على الموتى واللطم في الجنائز. واكرام الميت دفنهُ بعد غسله والصلاة عليهِ فوراً . ومن الحفلات التي كان لها أهمية كبيرة فيما سبق حفلات الختان وحفلات ختم القرآن . وبالنسبة الى أهل مكة فان حفلة السلام على من يعود من زيارة المدينة المنورة من أبهى الحفلات واجلها . وعلى ذكرنا للختان لا نرى بدًّا من ذكر عادة سيئة من اقبح عادات بدو الحجاز وعسير وهي عادة سلخ الشاب المراهق في حفلة تتجلى فيها كافة الوان القظاعة والوحشية على ملأ من الناس ومشهد من اتراب المسلوخ واقرانهِ. والويل والعار لكل شاب يظهر ألماً او تململاً بينما تعمل موسى السالخ في جلده وقد أبطلت هذه العادة القبيحة بعد ان كانت عامة بين كثير من قبائل الحجاز وعسير مثل هذيل وغامد ورجال ألمع وفهم وغيرهم

تربية الاطفال

وعناية البدو بأطفالهم قليلة جدًّا . فالطفل منذ ولادته رفيق والدته تحمله معها في اعمالها اليومية او تتركه في الخيمة الى كان عملها فيها . وحينما يصبح الولد قادراً على السير تستصحبهُ امهُ او اخوته معهم اثناء العناية بالانعام ورعيها . ولا يعتنى بالطفل من الوجهة الصحية والنظافة كما انهُ لا يعتنى بتعليمه وتدريبه . ومتى اصبح قادراً على رعي الحيوانات بمفرده كلف بها وعهد اليهِ بحراستها والعناية بأمرها . واما في الحواضر فالحالة تختلف بالطبع عما هي عليهِ في البادية . فتربية الاطفال والعناية بهم من الوجهتين الصحية والدينية ثم تعليمهم امر من اوامر الدين التي يراعيها الكثيرون . ولا يوجد حد معين لبقاء الطفل مع امهِ وانما الغالب انهُ بمجرد صيرورته قادراً على تدبير شؤون نفسه يتعلق بأبيهِ او باخوتهِ، واذا راهق زُوّج وبعد الزواج قد يبقى مع والديهِ ولكنهُ في الغالب ينفصل عنهما

وسن الزواج ليس لها حدّ معين . وعادة تزويج القاصرين ما تزال جارية الى يومنا هذا

معاملة الابل

لا تقل عناية العرب بالابل عن عنايتهم بالخيول وتزيد حاجتهم اليها عن كل ما عداها فانها ضرورية في انتقالهم وفي حروبهم وغزواتهم ومن اجل حليبها ولحمها ووبرها . وفي البادية كثيرون لا يملكون من حطام الدنيا الاَّ ناقة تدر عليهم من خيرها فيقتاتون به في حياتهم القاسية وتملك هذه البلاد اكبر عدد من الجمال كما انها تملك أجود الانواع واحسنها

ولأجواد الابل انساب تحفظ ويعتنى بها مثل ما يعتنى بنسب الخيول الأصيلة وهذه الاجناس يمكن حصرها فيما يلي :

الابل العهانية وهي أسلس الانواع قياداً واكثرها راحة

الابل الحرة وهي اقوى من العهانية واكثر جلداً وصبراً

الابل الباطنية وهي مثل العهانية

الابل الدرعية وهي مثل العهانية من حيث سهولة ركوبها ومثل الحرة من حيث قوتها

الابل الخوارة وهي سهلة الركوب الاَّ أنها دون الاجناس الاخرى

الابل الجرْمية وهي أدنى اصناف الابل

ويجمل بنا في هذا المقام ان نذكر الاسماء الاصطلاحية التي تطلق على الابل في نجد وهي : —

الجمال : تفيد النوع مطلقاً

الابل : تطلق على الاناث التي لا تركب وهي التي تلد وترضع صغارها ولكنها لا تحلب

الناقة : واحدة من الابل سواء اكانت تحلب ام لا

المسح : الابل التي يستدرُّ حليبها وهي غير التي يرضعها ولدها

الخيش : انثى الجمل التي تستعمل للركوب فقط

الذلول : واحدة من الخيش

الرَّمْل : الذكور من الجمال اجمالاً

البعير : لا يستعمل الاَّ للذكور

الهجين : لا تستعمل في نجد ولكنها تعني الذلول

وتسمى الناقة الحبلى اللقحاء والتي تجر ولدها ولدها الخلفة والتي يصحبها ولدها الذي لا يزيد عمره عن عشرة اشهر عشرة

ولصغار الابل أسماء مختلفة بحسب السن التي تبلغها . فيقال للذي عمرهُ أقل من سنة حوار وتمام السنة مفرودة ، وتمام سنتين حقَّة ، وتمام ثلاث سنين لقيَّة ، وتمام اربع سنين جذعة ، وما فوق ذلك الى خمس سنين ثنيَّة ، وما فوق خمس سنين رباع

والانثى من جميع هذه تسمى بَكْرَة والذكر قَعُوداً